دور المدرسة اليوسفية في انتشار العلوم والمعارف في مملكة غرناطة

أ.د أحلام حسن مصطفى النقيب * م.د. برزان ميسر حامد أحمد **

تأريخ التقديم: 2012/5/3 تأريخ القبول: 2012/6/19

المقدمـــــة

مدينة غرناطة أو أغرناطة حسبما وردت في الروض المعطار[1] المدينة العربية الإسلامية القديمة التي أفرزت شخصيات علمية وسياسية وأدبية وثقافية وفقهية، وانتهجت سياسة معينة أطالت من بقاءها فترة زمنية طويلة صامدة بوجه الاسبان متحدية كل الصعاب، مما حدا بالمؤرخين[2] إلى تسميتها بـ (الأندلس الصغرى).

نشأت مملكة (سلطنة) غرناطة عام (635 – 897 هـ/ 1238 – 1492 م) أو ما تسمى بالدولة النصرية نسبة إلى بُناتها النصريين قبيل القرن 7 هـ/ 13 م واتخذت من المدينة (غرناطة) عاصمة لها[3].

---

* قسم التأريخ / كلية التربية/ جامعة الموصل.
** قسم التأريخ / كلية التربية/ جامعة الموصل.

(1) لحميري، محمد بن عبد المنعم، **الروض المعطار في خبر الاقطار**، تحقيق: احسان عباس، ط1، بيروت، دار العلم للطباعة، 1975، ص45.

(2) الحجي، عبد الرحمن علي، **التأريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة**، ط1، بيروت – دمشق، دار القلم، 1976، ص509؛ الكبيسي، خليل إبراهيم، طه، عبد الواحد ذنون، مطلوب، ناطق صالح، **تأريخ العرب وحضارتهم في الأندلس**، جامعة الموصل، مطبعة دار الكتب للطباعة والنشر، 1986، ص289.

(3) ارسلان، شكيب، **الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية**، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، د. ت 1/ 188، 189؛ شبانة، محمد كمال، **يوسف الأول بن الأحمر، سلطان غرناطة**، ط1، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2004، ص 17، 18، الصاوي، الصاوي محمد، **دولة بني الأحمر والموريسكيون**، ط1، الجيزة، الدار العالمية للكتب والنشر، 2010، ص88.

تقع غرناطة في الركن الجنوبي من الأندلس (شبه جزيرة أيبيريا) على نهر الوادي الكبير، يحدها من الشمال مدينة قرطبة وجيان[1]، ومن الشرق مدينة مرسية[2]، ومن الغرب مدينة قادس[3]، واشبيلية وأرض الفرنتيرة[4] ومن الجنوب مدينة مالقة[5]

(1) **جيان:** مدينة بالأندلس قديمة مشهورة، ازلية من بنيان الأوائل، بينها وبين غرناطة مسافة خمسين ميلاً، وهي كثيرة الخصب، رخيصة الاسعار، وبها جنات وبساتين ومزارع. ينظر: ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبي، **صورة الأرض**، ط2، بيروت، منشورات مكتبة الحياة، 1979، ص105؛ الادريسي، أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحمودي الحسني المعروف بالشريف، **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1994، 2/ 568؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص183.

(2) **مرسية:** مدينة بالأندلس وهي قاعدة تدمير، بناها الامير عبد الرحمن بن الحكم، واتخذت دار العمال وقرار القواد، ولها جامع جليل وحمامات واسواق عامرة، واسعارها رخيصة الفواكه كثيرة الشجر والاعناب واصناف الثمر. ينظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص539

(3) **قادس:** جزيرة بالأندلس عند طالقة من مدن اشبيلية وبها مزارع كثيرة الريع، واكثر مواشيها المعز، وبها اثار للاؤل كثيرة. ينظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص448.

(4) **أرض الفرنتيرة:** وتكتب انتقيرة مدينة أندلسية قديمة حصينة تقع شمال غرب مالقة وتبعد عنها 59 كم ومعناها بالاسبانية الحدود الفاصلة بين دولتين. ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبدالله محمد السلماني، **مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس** (مجموعة من رسائله)، نشر: أحمد مختار العبادي، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة،1983، ص 94.

(5) **مالقة:** مدينة بالأندلس تقع على شاطئ البحر شرق غرناطة، وهي من أشهر مراسي البحر المتوسط ومنها إلى غرناطة ثمانون ميلاً. ينظر: الإدريسي، **نزهة المشتاق**، 2/565، 570؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص 517؛ إبن الخطيب، **مشاهدات**، ص57؛ **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق: محمد كمال شبانة، طبعة جديدة، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2002، ص87؛ إبن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى، **مسالك الابصار في ممالك الامصار**، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 2010، 4/ 124.

ومضيق جبل طارق[1].

كانت المملكة اداريا تشمل وقتذاك ثلاث ولايات كبرى[2] هي:

ولايـة المريـة: وتشمل المساحة التي تشغلها مرسية حتى شاطئ البحر المتوسط، وأهم مدنها: المرية[3]، واندرش[4]، ودلاية[5]،

وبرجة[1]، وبرشانة[2]، والمنصورة[3]، وبيرة[4] **ولاية مالقة:** وموقعها متاخم لساحل البحر شرقي غرناطة، وأهم مدنها مالقة ومربلة[5] ورندة[6]، وانتقيرة، وارشذونة[7]، وبليش[8] مالقة، وقمارش[9]،

---

(1) البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن بن عبدالحق، **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، تحقيق وتعليق: علي محمد البجاوي، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، 1954، 990/2؛ القلقشندي، احمد بن علي، **صبح الاعشى في صناعة الانشا**، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه: نبيل خالد الخطيب، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1987، 5/ 207، 208.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبدالله محمد السلماني، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق: محمد عبدالله عنان، القاهرة، 1974 – 1977، 1/ 115 – 119؛ عنان، **دولة الإسلام في الأندلس، (نهاية الأندلس وتأريخ العرب المتنصرين)**، القاهرة، 1996، ص55.

(3) **المرية:** مدينة بالأندلس محدثة أمر ببناءها أمير المؤمنين الناصر لدين الله عبد الرحمن أبن محمد سنة أربع وأربعين وثلاثمائة، وهي من أشهر مراسي الأندلس واعمرها، ومن اجل امصارها وأشهرها، وعليها سور حصين. ينظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص537، 538؛ ابن الخطيب، **مشاهدات**، ص43 هامش رقم (1). سالم، السيد عبد العزيز، **تأريخ مدينة المرية الإسلامية (قاعدة أسطول الأندلس)**، ط1، بيروت، دار النهضة العربية، 1969.

(4) **اندرش:** بلدة من أعمال المرية غير موجودة الآن ولكن لا يزال اسمها يطلق على نهر هناك ينبع من جبل شلير وينحدر شرقاً وجنوباً ثم يصب مياهه في البحر المتوسط عند المرية. ينظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص 42؛ ابن الخطيب، **مشاهدات**، ص88 هامش رقم (1).

(5) **دلايـة:** قرية بالأندلس من أعمال المرية. ينظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص 236؛ ابن الخطيب، **مشاهدات**، ص82 هامش رقم (1).

كما تتبعها طريف[10]، والجزيرة الخضراء[1] وجبل طارق.

---

(1) **برجة:** من أعمال المرية ايضاً وتقع غرب ثغر المرية. ينظر: ابن الخطيب، **معيار الاختيار**، ص98؛ **مشاهدات**، ص81 هامش رقم 2.

(2) **برشانة:** بالأندلس وهي حصن على مجتمع نهرين، وهو من امنع الحصون مكانة وأوثقها بنياناً، وأكثرها عمارة. ينظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص88؛ ابن الخطيب، **مشاهدات**، ص36 هامش رقم (1).

(3) **المنصورة:** تقع شمال شرق المرية. ينظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص 550.

(4)**البيرة:** بلدة حصينة تشرف على ساحل البحر المتوسط في شمال شرق غرناطة. ينظر: ابن الخطيب، **معيار الاختيار**، ص104؛ **مشاهدات**، ص40 هامش رقم (1).

(5) **مربلة:** مدينة بالأندلس صغيرة مسورة من بناء الأول، تقع بالقرب من مرسى مالقة، وهي محكمة العمل ولها عمارات وأشجار تين كثيرة. ينظر: الادريسي، **نزهة المشتاق**، 570/2؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص 534؛ ابن الخطيب، **معيار الاختيار**، ص85؛ **مشاهدات**، ص75 هامش رقم (6)؛ ابن فضل الله العمري، **مسالك الابصار**، 4/ 125.

(6) **رندة:** مدينة بالأندلس من مدن تاكرنا تقع غرب مالقة وهي من أهم القواعد الأندلسية، ومن أهم مدن غرناطة، بها اثار كثيرة، وهي على نهر ينسب إليها. ينظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص 269؛ ابن الخطيب، **معيار الاختيار**، ص130؛ القلقشندي، **صبح الاعشى**، 5/ 220.

(7) **ارشذونة:** بالأندلس وهي قاعدة كورة رية ومنزل العمال والولاة، ولها مدن كثيرة، وبها آثار قديمة. ينظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص25.

(8) **بليش:** تقع غرب مدينة مالقة على مسافة 34 كم. ينظر: ابن الخطيب، **معيار الاختيار**، ص92.

(9): تقع بالقرب من مدينة غرناطة وهي وافرة الماء والزرع من كروم وزيت وحبوب. ينظر: ابن الخطيب، **معيار الاختيار**، ص92؛ **مشاهدات**، ص79، هامش رقم (1).

(10) **طريف:** جزيرة بالأندلس منسوبة إلى القائد طريف بن مالك المعافري المكنى أبو زرعة، تقع على البحر في أول المجاز المسمى بالزقاق، ويتصل غربيها ببحر الظلمة

واخيراً ولاية غرناطة: التي تتوسط المملكة ممتدة جنوبا حتى البحر، وأهم مدنها العاصمة نفسها[2] ووادي آش[3]، والحامة[4]،

وحصن اللوز ولوشة [5]، وارجبة[6]، واشكر [1]، وبسطة[2]، وشلوبانية[3].

(المحيط الاطلسي)، هي مدينة صغيرة عليها سور تراب، ويشقها نهر صغير، وبها اسواق وفنادق وحمامات، ومنها إلى الجزيرة الخضراء ثمانية عشر ميلاً. ينظر: الادريسي، **نزهة المشتاق**، 539/2؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص392؛ ابن فضل الله العمري، **مسالك الابصار**، 4/ 126.

(1) **الجزيرة الخضراء:** مدينة بالأندلس، ويقال لها جزيرة أم حكيم نسبة إلى جارية طارق بن زياد مولى موسى بن نصير، كان حملها معه فتخلفها بهذه الجزيرة فنسبت إليها، وعلى مرسى أم حكيم تقع مدينة الجزيرة الخضراء، وهي على ربوة مشرفة على البحر. ينظر: الادريسي، **نزهة المشتاق**، 539/2؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص223؛ ابن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار**، 126/4.

(2) ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، 1/ 115 –119؛ المقري، أبو العباس احمد بن محمد التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1949، 155/1، 164 – 168، ارسلان، **الحلل السندسية**، 1/ 189 وما بعدها.

(3) **وادي آش:** مدينة الاندلس قريبة من غرناطة، كبيرة خطيرة، تطرد حولها المياه والانهار، ينحط نهرها من جبل شلير، وهي كثيرة التوت والأعناب وأصناف الثمار والزيتون والقطن بها كثير. ينظر: الادريسي، **نزهة المشتاق**، 567/2؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص604؛ ابن الخطيب، **معيار الاختيار**، ص112؛ ابن فضل الله العمري، **مسالك الابصار**، 4/ 118.

(4) **الحامة:** تقع بالقرب من مدينة بجانة، وهي من أعمال المرية، وقد اطلق العرب عليها إسم الحمة نسبة إلى العين الحارة التي تفجرت بها وهي مقصد كثير من ذوي العلل والأسقام. ينظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص200؛ ابن الخطيب، **معيار الاختيار**، ص124.

(5) **حصن اللوز ولوشة:** بالأندلس من أقاليم البيرة، ويذكر ابن الخطيب، ان هذه البلدة موطنه وعاش والده بها. ينظر: **مشاهدات**، ص93، هامش رقم (6)؛ ابن فضل الله العمري، **مسالك الابصار**، 4/ 117–118

(6) ارجبة: لم اعثر لها على ترجمة.

تخترق المملكة عدة أنهار أهمها نهر شنيل، ونهر حدرة، ونهر المنصورة، كما تخترقها سلسلة جبال سييرانيفادا في الوسط وهضاب البشرات، و تنتشر سهولها الخضراء المترامية الأطراف، والتي تغني المنطقة بثروة زراعية هامة، زيادة على ما تجود به المناطق الجبلية من معادن نفيسة كالحديد والرصاص والنحاس[4].

اقترن اسم مملكة غرناطة في تأريخ الأندلس بأسم اسرة بني الاحمر أو بني نصر أو النصريون، تلك الدولة الإسلامية الصغيرة التي أوجدتها ظروف غير عادية وبقيت صامدة للفتن السياسية بالداخل، والتيارات الحربية من الخارج قرابة قرنين ونصف من الزمان (635 – 897 هـ/ 1238 – 1492م) وقد ذكر المؤرخون[5] ان السلاطين الذين

---

(1) **اشكر**: بلدة في ولاية غرناطة وتقع شمال بسطة. ينظر: ابن الخطيب، **مشاهدات**، ص87، هامش رقم (3).

(2) **بسطة**: مدينة قديمة متوسطة المقدار، حسنة الموضع، لها أسوار حصينة تقع في شمال غرناطة بنحو 123 كم، وكانت مشهورة بمنتجاتها الزراعية ولاسيما الزيتون، وبمنتوجاتها الحريرية. ينظر: الادريسي، **نزهة المشتاق**، 568/2؛

(3) **شلوبانية**: وتكتب شلوبينية وشلوبين، وهي من الثغور الصغيرة الواقعة جنوبي ولاية غرناطة على البحر المتوسط، كما أنها تقع شرق المنكب، وتحيط بها الجبال من الشمال والغرب. ينظر: ابن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار**، 123/4.

(4) الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت، **معجم البلدان**، طبعة جديدة مصححة ومنقحة، قدم لها: محمد عبدالرحمن المرعشلي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د. ت، 3/ 382؛ ابن فضل العمري، **مسالك الابصار**، 116/2– 118؛ الطوخي، احمد محمد، **مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر**، تقديم: احمد مختار العبادي، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1997، ص 50؛ شبانة، **يوسف الأول بن الأحمر**، ص17، 18.

(5) ابن الخطيب، **اللمحة البدرية في الدولة النصرية**، ط2، بيروت، دار الأفاق الجديدة، 1978، ص42، الإحاطة في أخبار غرناطة، 1/ 148؛ ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي المغربي، **تأريخ ابن خلدون المسمى العبر**، بيروت، منشورات الاعلمي للمطبوعات، 1971، 4/ 170؛ باشا، ضيا، **دولة الموحدين ودولة بني الأحمر**

تعاقبوا الملك على غرناطة من بني نصر يرجع نسبهم إلى سعد بن عبادة الخزرجي الانصاري، أحد كبار صحابة رسول الله (ﷺ) وسيد قبيلة الخزرج من الأنصار بالمدينة، مما يضفي على هؤلاء السلاطين عراقة في المجد ونسبة في التأريخ المشهور.

قامت مملكة غرناطة إثر سقوط دولة الموحدين (540 – 620 هـ/1145 – 1123م) في ثنايا الفتن والدسائس والثورات. وكان اول ملوكهم ومؤسس دولتهم هو الغالب بالله، امير المؤمنين أو عبدالله محمد الأول بن يوسف بن محمد بن نصر بن قيس الخزرجي الأنصاري (635 – 671 هـ/1238 – 1272م) الملقب بالشيخ والغالب بالله، ولد في " ارجونة" من أعمال ولاية جيان عام 595 هـ/ 1198 م، حيث تربى تربية دينية وعاش حياة بسيطة أملتها ظروف الجندية التي خاض غمارها بادئ ذي بدء فتمكن بهذه الصفات وغيرها من مؤهلات الزعامة أن يسود قومه، وكانت الأندلس يؤمئذ على حال من الاضطراب والفوضى جعله يفكر بإقامة دولة ولملمة ما بقي من العرب المسلمين في الأندلس تحت نفوذه، وكان هدفه من ذلك إعادة مجد العرب المسلمين فيها [1].

تعاقب على حكم مملكة غرناطة بعد وفاة مؤسسها أبي عبدالله محمد بن يوسف بن الأحمر عشرون سلطاناً، كان سابعهم السلطان أبو الحجاج يوسف الاول إبن إسماعيل (733– 755هـ/ 1333– 1354م) بدر الملوك وزين الأمراء، بويع بغرناطة بوادي السقائيين من ظاهر الخضراء ضحوة يوم الأربعاء الثالث عشر من شهر ذي الحجة، ساعة مقتل اخيه محمد الرابع، آواخر سنة 733هـ/ 1333م وعمره خمسة عشرة عاماً وثمانية أشهر. أمه أم ولد تسمى بهاراً،

وانهيار الأندلس الكبرى، تعريب: عبد الرحمن ارشيدات، مراجعة: صلاح ارشيدات، ط1، عمان، وزارة الثقافة، 1979، 3/ 78؛ حومد، اسعد، **محنة العرب في الأندلس**، ط2، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات، 1988، ص123 – 126.

(1) ابن الخطيب، **اللمحة البدرية**، ص 36؛ شبانة، **يوسف الأول بن الأحمر**، ص22؛ الصاوي، **دولة بني الأحمر والموريسكيون**، ص87، 88.

متصفاً في الخير والصون والرجاحة. كان في صباه كثير الصمت والسكون، فلم يمارس شيئا من أعمال الدولة إلا بعد ان توفرت له الحنكة والتجارب، فقام بأعباء الملك، وباشر بعض الحروب بنفسه، وقاتله الأسبان، وتمكن بسعيه من تخفيف حدة الشدة على بلاده. فكان ((من أعظم ملوك بني الأحمر عقلاً" وأبعدهم همة وفضلاً وأقدرهم على تدبير شؤون الملك))[1] فكان بحق عصرا ذهبياً.

والى جانب جرآته وشجاعته وبراعته السياسية، كان اديباً وفناناً ورجل إنشاء وتعمير، عاشت دولة بني الأحمر على أيامه عصرها الذهبي، فهو الذي أضاف إلى قصر الحمراء أعظم منشآته واروعها، واسمه منقوش على جدرانها[2] ونوافذها عشرات المرات فهو كما قال عنه ابن الخطيب: ((كان أبو الحجاج من جلة الملوك فضلا وعقلاً واعتدالاً))[3].

كما أولى الجانب الأدبي اهتماماً كبيراً، فقد كان رائد النهضة الأدبية التي سادت في أيامه ورعى روادها من الشعراء والكتاب، وذلك لما كانت تنطوي عليه

---

(1) المكناسي، أبو عبدالله محمد بن عثمان، **الاكسير في فكاك الاسير**، تحقيق: محمد الفاسي، الرباط، مطبعة اكدال، 1965، ص173؛ ابن الخطيب، **اوصاف الناس في التواريخ والصلات تليها الزواجر والعظات**، تحقيق: محمد كمال شبانة، المغرب، مطبعة فضالة، د. ت، ص24؛ **اللمحة البدرية**، ص102؛ **كناسة الدكان بعد انتقال السكان**، تحقيق: محمد كمال شبانة، مراجعة: حسن محمود، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، د. ت، ص22؛ شبانة، **يوسف الأول بن الأحمر**، ص 40، 41؛ باشا، **دولة الموحدين ودولة بني الأحمر وانهيار الأندلس الكبرى**، ص173؛ الصاوي، **دولة بني الأحمر والموريسكيون**، ص197.

(2) طقوش، محمد سهيل، **تأريخ المسلمين في الأندلس**، ط1، بيروت، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ص598؛ شبانة، **يوسف الأول بن الأحمر**، ص43؛ فرحات، يوسف شكري، **غرناطة في ظل بني الأحمر (دراسة حضارية)**، ط1، بيروت، دار الجيل، 1993، ص35.

(3) ابن الخطيب، **أعمال الإعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، القسم الثاني، نشر بعنوان: **(تأريخ اسبانيا الإسلامية)**، تحقيق: ليفي بروفنسال، ط2، بيروت، دار المكشوف، 1956، ص304.

شخصيته من روح شاعرية. فضلا عن ذلك كان من مشجعي الحركة العلمية ففسح المجال في بلاطه لجهابذة العلم والادب، مما دفعه إلى تشييد المدارس الثقافية بالمملكة(السلطنة)، ومن أعظم مفاخره في هذا المجال (المدرسة اليوسفية) سنة 750 هـ/ 1349 م موضوع بحثنا، حيث كانت تحفة عصره وأعجوبة مَصره، أنشئت بمبادرة من حاجبه ووزيره أبي النعيم رضوان النصري[1]، ثم أوقف عليها الاوقاف المغلة رغبة منه في إعلاء شأنها ومساعدة قُصَادها من العلماء والطلاب على ان يرتادوها لينهلوا من علومها ومعارفها في يسر ورخاء، وبذلك غدت المدرسة اليوسفية أو مدرسة غرناطة وريثة للمكانة العلمية التي امتازت بها جامعة قرطبة[2].

المدرسة اليوسفية:

سميت هذه المدرسة نسبة إلى مؤسسها السلطان أبو الحجاج يوسف الأول بن إسماعيل (733–755هـ/ 1333– 1354م) كما عرفت بالمدرسة النصرية والمدرسة العلمية ومدرسة غرناطة، وتعد من أشهر المراكز التعليمية في الأندلس

(1) أبو النعيم رضوان النصري، من الشخصيات اللامعة في تأريخ مملكة غرناطة، ظهر على عهد السلطان محمد الرابع (725 – 733هـ/ 1325 – 1333 م) واستمر على عهد السلطان أبو الحجاج يوسف الاول وعهد ابنه أبو عبدالله محمد الخامس الغني بالله (755 – 760 هـ/ 1354 – 1359م). تولى الوزارة وأظهر كفاية ممتازة في تدبير الشؤون السياسية، وقاد بعض الغزوات الناجحة إلى اراضي قشتالة، كما عهد اليه بمهمات دبلوماسية على عهد السلطان أبو الحجاج يوسف، وصف بحسنة الدولة النصرية وفخر مواليها، ومن أعظم مآثره إنشاء مدرسة غرناطة الشهيرة. ينظر: ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، 518/1، 540، 542؛ **اللمحة البدرية**، ص103؛ شبانة، **يوسف الأول بن الأحمر**، 52؛ النقيب، أحلام حسن مصطفى، **دور الوزير أبو النعيم رضوان في سياسة غرناطة الداخلية والخارجية**، بحث منشور في مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل، كلية التربية، المجلد11، العدد3، لسنة 2004، ص11.

(2) شبانة، **يوسف الأول بن الأحمر**، ص44، 45؛ فرحات، **غرناطة في ظل بني الأحمر**، ص35، 36؛ العبادي، احمد مختار، **دراسات في تأريخ المغرب والأندلس**، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1982، ص 232، 237.

بعد مسجد قرطبة الجامع، ومن أعظم مناهل العلم في الأندلس والمغرب[1]. نشأت على عهد السلطان الغرناطي أبي الحجاج يوسف الأول بناءاً على مبادرة من الحاجب أبو النعيم رضوان النصري. ولقد حازت هذه المدرسة شهرة واسعة حتى اجمع كافة المؤرخين تقريباً على اعتبارها أولى المدارس في الأندلس، كما أنها المدرسة الوحيدة التي وصلت بعض أجزائها إلى أيامنا هذه[2].

وقد أورد ابن الخطيب[3] ترجمة لمعاصره وصديقه الحاجب والوزير أبو النعيم رضوان النصري صاحب المبادرة في تأسيس هذه المدرسة مما يعطينا توضحياً لبعض الأمور فيقول: ((أحدث المدرسة بغرناطة، ولم تكن بها بعد، وسبب إليها الفوائد، ووقف عليها الرياع المغلة، وانفرد بمنقبت

ها، فجاءت نسيجة وحدها بهجة وصدراً، وظرفاً وفخامة وجلب الماء الكثير إليها من النهر، فأبد سقيه عليها، وأدار السور الأعظم على الربض الكبير المنسوب للبيازين. . .)).

موقع المدرسة:

كان ((موقع مدرسة غرناطة القديمة، قائماً في الدرب الضيق المحاذي لشارع الملكين الكاثوليكيين تجاه المدفن الملكي))، في الجهة المقابلة من رحبة الجامع الكبير حيث كان يقع أجمل بناء في المدينة بل ربما في غرناطة كلها وهي المدرسة اليوسفية، ومع أن المدرسة كانت تشكل مثالاً من مكرمة ملكية إلا إن

(1) ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، 1/516 – 517؛ عنان، محمد عبدالله، **دولة الإسلام في الأندلس (نهاية الأندلس وتأريخ العرب المتنصرين)**، ط4، القاهرة، مطبعة المدني، 1988، ص126، 443، 444؛ عيسى، محمد عبد الحميد، **تأريخ التعليم في الأندلس**، تقديم، عبد الغني عبود، ط1، مصر، دار الفكر العربي، ص380؛ النقيب، أحلام حسن مصطفى، **شخصيات وأحداث في تأريخ مملكة غرناطة**، ط1، الموصل، مكتب القمة للنشر، 2010؛ ص17.

(2) عيسى، **تأريخ التعليم في الأندلس**، ص390؛ فرحات، **غرناطة في ظل بني الأحمر**، ص134؛ النقيب، **شخصيات وأحداث**، ص18؛ شبانة، **يوسف الأول بن الأحمر**، ص99.

(3) **الإحاطة في أخبار غرناطة**: 1/ 516 – 517.

الذي أوحى بتأسيسها هو الحاجب رضوان كما سبقت الإشارة. وفي عام 1500م تحولت المدرسة إلى مجلس إدارة المدينة على يد فرديناند وايزابيلا لتكون مقر عمليات (Casa de Cabildo) وبقيت دون أن يمسها تغيير كبير حتى القرن الثامن عشر الميلادي عندما هدمت وأقيم مكانها دار بلدية على الطراز الباروكي. ((ولم يبق من البناء القديم سوى الجناح الذي يحتوي على المحراب))[1] أي قاعة الصلاة التي قام المهندس الاسباني كونتيرا بترميمها، وتقع في الجهة المقابلة لكاتدرائية غرناطة [2].

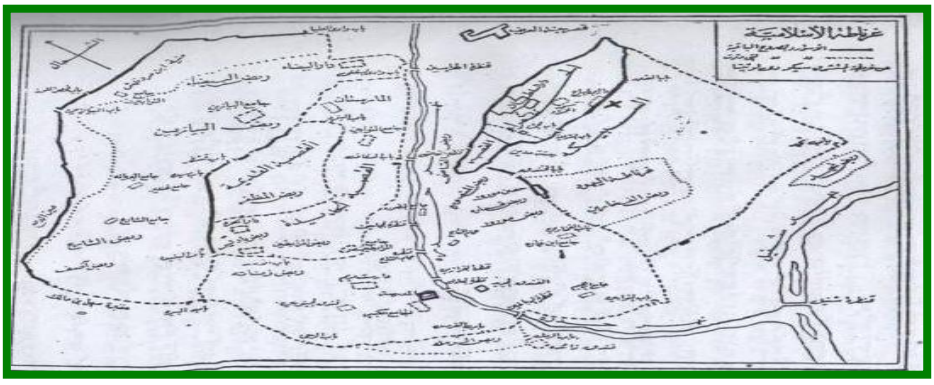

معالم الخارطة نقلا عن: محمد عبدالله عنان، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، (ط2، القاهرة، 1961)، ص163

(1) ابن الخطيب، **كناسة الدكان**، ص155 هامش المحقق رقم (3)؛ عنان، محمد عبدالله، **الاثار الاندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال (دراسة تأريخ ية اثرية)**، ط2، القاهرة، مؤسسة الخانجي، 1961، ص172؛ شبانة، **يوسف الأول بن الأحمر**، ص99؛ جيمس دكي (يعقوب زكي)، **غرناطة مثال من المدينة العربية في الأندلس**، بحث منشور في كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1998، 169/1.

(2) فرحات، **غرناطة في ظل بني الأحمر**، ص135، 136.

تأسيس المدرسة:

يرى المستشرق الاسباني لويس ثيكو دي لوثنيا ان العمل قد انتهى من بناء المدرسة في عام (750 هـ/ 1349م) حيث تشير إلى ذلك اللوحة التذكارية التي كانت منصوبة على واجهة المدرسة، والباقية حتى اليوم في متحف الآثار بغرناطة[1] وأن بناء المدرسة قد تم تماماً خلال عام 749 هـ/ 1348م وإن كان افتتاحها الرسمي قد تأجل حتى الشهر الأول من عام 750 هـ/ 1349م[2].

علماً ان المصادر لا تشير إلى سنة بدء العمل، ومن المحتمل ان العمل قد بدأ قبل سنة 740 هـ/ 1359م أي قبل ان يعزل السلطان أبو الحجاج يوسف حاجبه أبو النعيم رضوان ونفاه إلى المرية ثم استكمل الحاجب رضوان بناء المدرسة بعد عودته للسلطنة مجدداً[3].

وقد أوردت لنا المصادر التأريخ ية[4] نصَ مرسومِ افتتاحِ المدرسةِ القائل: ((أمر بناء هذه الدار للعلم جعلها الله استقامة ونوراً، وأدامها في علوم الدين على الأيام، أمير المسلمين أظله الله بعونه العلي الشهير السيد الطاهر الرفيع الهمام السلطان المؤيد، أبو الحجاج يوسف ابن العلي الكريم، الكبير، الخطير الشهير، المجاهد الفاضل العادل المقدس الارضي أمير المسلمين وناصر الدين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر كافى الله في الإسلام صناعه الزاكية وتقبل أعماله الجهادية وتم ذلك في شهر محرم عام خمسين وسبعمائة)).

---

(1) Secode Lucena, El Hayib Ridwan y Granada, P. 295 – Alndalus XXI (1956) 285 296.

(2) المرجع نفسه، ص397؛ كَولان، ج. س، **الأندلس**، ط1، القاهرة، لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، إبراهيم خورشيد وآخرون، بيروت، دار الكتاب اللبناني، القاهرة، دار الكتاب المصري، 1980، ص174.

(3) النقيب، **شخصيات وأحداث**، ص18.

(4) ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، 1/ 516– 517؛ المقري، **نفح الطيب**، 9/ 186؛ وينظر: شبانة، **يوسف الأول بن الأحمر**، ص99؛ عيسى، **تأريخ التعليم في الأندلس**، ص289.

وقد كتب هذا النص على لوحة رخامية عدت واحدة من اللوحات الخاصة بهذه المدرسة، إلا أنها نزعت منها عند هدمها ونقلت إلى مختلف المتاحف الاسبانية ومنها متحف الآثار بغرناطة[1].

وقد زخرفت المدرسة بالآيات القرآنية و الأبيات الشعرية فحملت على بابها أبيات شعرية لأبي الحسن بن الجياب[2] (ت: 749 هـ/ 1349 م)، التي يؤكد المقري[3] أنها كتبت على باب المدرسة العلمية (المدرسة اليوسفية) بغرناطة:

يا طالب العلمِ هذا بابُه فُتِحا
فادخلْ تَشاهِدْ سناهُ لاحَ شمسَ ضُحى
واشكر مجيدَكَ من حَلَّ ومرتحلِ
اذ قرّبَ اللهُ مِنْ مرماك ما نَزَحا
وشرَّفتْ حضرةُ الإسلامِ مدرسةٌ
بِها سبيلُ الهوَى والعلمِ قدْ وضَحا
أعمالُ يوسفَ مَولانا ونَيَّتُهُ
قَدْ طرَّزتْ صُحفاً ميزَانُها رَجحا

اما في الرواق الداخلي للمدرسة، فقد وجدت قصيدة من نظم الوزير ابن الخطيب تشيد بالمدرسة ومنشئها، وهي ميمية القافية، وتتألف من تسعة أبيات مطلعها:

---

(1) المقري، **نفح الطيب**، 9/ 186؛ شبانة، **يوسف الأول بن الأحمر**، ص99؛ عنان، **الاثار الأندلسية**، ص172.

(4) **أبو الحسن بن الجياب:** هو علي بن محمد بن سليمان بن علي بن سليمان بن حسن الانصاري الغرناطي، يكنى ابا الحسن، ويلقب بأبن الجياب، شاعر وأديب أندلسي غرناطي انصاري، من شيوخ لسان الدين بن الخطيب، ولد في غرناطة وبها نشأ وترعرع واخذ العلم عن مجموعة من علمائها الافاضل، توفي بالطاعون في غرناطة سنة 749هـ/ 1371 م، تاركاً وراءه الكثير من الشعر والنثر، جمع اغلبه تلميذه لسان الدين ابن الخطيب. ينظر: المقري، **نفح الطيب**، تحقيق: إحسان عباس، طبعة جديدة، بيروت، دار صادر، 1997، 434/5، 457.

(3) **نفح الطيب**، 7/ 275، 276، 9/ 185؛ وينظر: عيسى، **تأريخ التعليم في الأندلس**، ص396.

إلا هكذا تبنى المدارس للعلم

وتبقى عهود المجد ثابتة الرسم

ويقصد وجه الله بالعمل الرضا

وتجنى ثمار العز من شجر العزم

تفاخر منى حضرة الملك كلما

تقدم خصم في الفخار إلى خصم

فاجدى إذا ظن الغمام من الحيا

وأهدى إذا جن الظلام من النجم

فيا ظاعنا للعلم يطلب رحله

كفيت اعتراض البيد أو لجج اليم

ببابي حط الرحل لا تنو وجهه

فقد فزت في حال الإقامة بالغنم

فكم من شهاب في سمائي ثاقب

ومن هالة دارت على قمرتم

يفيضون من نور مبين إلى هدى

ومن حكمة تجلو القلوب إلى حكم

جزى الله عني يوسفاً خير ما جزى

ملوك بني نصر عن الدين والعلم[1]

وفضلا عن ذلك فقد وجدت ثلاثة أبيات من الشعر منقوشة ايضاً على الباب الرئيسي للمدرسة، مطلعها:

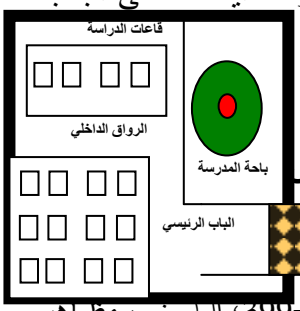

(1) المقري، **نفح الطيب**، 7/ 276، 277، 186/9؛ **أزهار الرياض** مصطفى السقا، إبراهيم الابياري، وعبد الحفيظ شلبي، الرباط، الاندلسي بين حكومتي المملكة المغربية والامارات ال 1/ 272؛ عيسى، **تأريخ التعليم في الأندلس**، ص398-399؛ الطوخي، **مظاهر الحضارة**، ص317؛ شبانة، **يوسف الأول بن الأحمر**، ص100.

انظر إلى روضٍ عجيبُ المنَظرِ
قَدْ رَاقَ حسناً لامِحاً في المحجر
وتأمل البابَ النسيج صناعته
تُبدي الجلالَ بوضعهِ المتخيرِ
وادخل عليهِ للصلاةِ مُبادراً
لِتفوزَ إنعاماً بيومِ المَعَشرِ [1]

وليس لدينا بيانات كافية تساعد على رسم صورة لما كانت عليه المدرسة، ولكن يمكن أن نتخيل البناء من واقعه الحالي، ومما تقدمه لنا مدارس المغرب العربي، بأنه كان محتويا على بهو واسع تحيط به رواقات جانبية تستخدم للتدريس، وانه يحتوي على طابق علوي يستخدم لمبيت الطلبة الغرباء الواردين إلى المدرسة، وفي نهاية الفناء الكبير أُلحق بالمدرسة مصلىً صغير لإقامة الصلاة، وهو الجناح الذي يحتوي على المحراب، وهذا الجزء من المدرسة هو الذي تَبَقىَ من البناء القديم، فضلا عن وجود مساكن للطلبة إلى جوار المدرسة ولوحات ونقوش عربية وقطع رخامية نزعت ونقلت إلى متحف غرناطة الاركيولوجي[2].

أحباس المدرسة (الاوقاف)

يبدو ان اوقاف المدرسة كانت كثيرة حتى أن الأمر تطلب ان يُعَّين لها مسؤول يخصص لذلك وهو محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم الانصاري المتوفى سنة 770 هـ/ 1398م والذي يقول عنه ابن الخطيب[3].

((وهو الان مستوطناً حضرة غرناطة، وتالياً للاعشار القرآنية بين يدي السلطان، اعزه الله، مرفع الجانب، معزز الجراية بولايته احباس المدرسة)).

(1) عيسى، **تأريخ التعليم في الأندلس**، ص398.
(2) عنان، **الاثار الاندلسية**، ص172؛ عيسى، **تأريخ التعليم في الأندلس**، ص399 – 400؛ النقيب، **دور الوزير أبو النعيم رضوان**، ص18.
(3) **الإحاطة في أخبار غرناطة**، طبعة القاهرة، 1974 – 1977، 3/ 196 – 199.

وقد الحق بالمدرسة مكتبة خاصة بها أمدها سلاطين غرناطة بالكتب، ومن الكتب التي أوقفت على هذه المدرسة في فترات لاحقة، "كتاب الإحاطة" لابن الخطيب، حيث أمر سلطان غرناطة أبو عبدالله محمد بن يوسف الثالث الملقب بالايسر (820 – 831 هـ/ 1417– 1428م) بوقفه على المدرسة في عام 829 هـ/ 1435م، وذلك لانتفاع الدارسين بهذا المؤلف التأريخ ي الكبير[1].

ومن الكتب الأُخرى التي تم وقفها على المدرسة، كتاب " الإشارات والتنبيهات" لأبي الحسين بن سيناء في المنطق والحكمة، كما كان كتاب ابن معط في علم النحو من الكتب المحبسة على مدرسة غرناطة[2]، كذلك اوقف صاحبُ الفضل في احداث المدرسة الحاجب أبا النعيم رضوان النصري، بأمر السلطان الاوقاف الجليلة عليها حتى غدت المدرسة ((نسيجة وحدها، بهجة وصدراً، وظرفا وفخامة)) [3].

ولابد هنا من الإشارة ايضا إلى وجود بعض الفنادق المجاورة للمدرسة والتي كانت محبسة على بعض مساجد غرناطة، مما يعطي الاحتمال في استخدامها لصالح المدرسة لمبيت الطلبة الغرباء[4].

مدة الدراسة والبرامج المعتمدة في التدريس:

مصادرنا العربية تكاد تكون شحيحة في هذا المجال اذ لا تشير صراحة إلى عدد السنوات التي كان يقضيها الطلاب في المدرسة اليوسفية قبل تخرجهم، بل توصلنا إلى أن الطلاب المتفوقين كانوا يحصلون على إجازة خطية يمنحون بموجبها حق التدريس لمادة معينة أو كتاب معروف. أما بما يتعلق بالبرامج

(1) ابن الخطيب، **كناسة الدكان**، ص155، 156، هامش المحقق رقم (3)؛ المقرى، **نفح الطيب**، 9/ 308 – 318؛ **أزهار الرياض**، 1/ 55؛ شبانة، **يوسف الأول بن الأحمر**، ص101، النقيب، **دور الوزير أبو النعيم رضوان**، ص18.

(2) عيسى، **تأريخ التعليم في الأندلس**، ص400؛ الطوخي، **مظاهر الحضارة**، ص316.

(3) ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، 1/ 516 – 517.

(4) عيسى، **تأريخ التعليم في الأندلس**، ص397.

المعتمدة فقد كانت المدرسة اليوسفية تعرض لائحة من الكتب مع أسماء الأساتذة الذين يقومون بتدريسها. فالقرآن الكريم كان يتصدر اللائحة ثم يأتي بالدرجة الثانية كتاب (الموطأ) للإمام مالك بن أنس إمام دارة الهجرة "المدينة المنورة" (93-179هـ/ 715 – 796م) [1].

وفي القرن الخامس عشر الميلادي/ الثامن الهجري، ظهر كتاب " تحفة الحكماء في نقاط العقود والأحكام" للقاضي أبي بكر بن عاصم الغرناطي (760 – 829 هـ/ 1359– 1426م) فيه توضيحات وتعليقات استقاها القاضي من كتاب (الموطأ) وأقوال السلف، وقد اعتمد الكتاب في المدرسة اليوسفية ونال شهرة واسعة في المغرب والأندلس. كما اهتمت المدرسة اليوسفية بتعليم اللغة والأدب، فاعتمد شيوخها على كتاب سيبويه وآثار الجاحظ (159-255هـ/781-877م) ومقامات الهمذاني (ت: 358- 395هـ/969-1007م)، والحريري (446- 516هـ/1054-1012م)، وكتاب الأغاني للاصفهاني (519- 527هـ/1125-1201م)، وأقبلوا على تدريس أشعار العرب عامة فكان ديوان الحماسة وديوان المتنبي وسقط الزند للمعري من الكتب المفضلة[2].

شيوخ المدرسة (المدرسين)

يلاحظ ان المدرسة اليوسفية بغرناطة كانت تختلف عن غيرها من المدارس الشرقية من حيث عدد المدرسين الذين يعملون بها في وقت واحد، فبينما نجد ان المدرسة النظامية في بغداد كان يتولى التدريس فيها مدرس واحد هو الشيخ الشيرازي (293-376هـ/1003-1083م) نرى ان المدرسة اليوسفية مختلفة تماماً، ففي الوقت الذي كان التجيبي (ت: 753 هـ/ 1352م) يدرس العلوم العقلية، كان الخولاني (ت: 754هـ/ 1353م) يدرس النحو والأدب، والسياري (ت: 753 هـ/ 1352م) يدرس الفقه.

(1) الطوخي، **مظاهر الحضارة**، ص317-318.

(2) فرحات، **غرناطة في ظل بني الأحمر**، ص135.

وفي الواقع أن المدرسة اليوسفية ضمت بين جدرانها كبار الشيوخ على عهدها، ولم يكن من السهل القيام بالتدريس فيها إلا لمن كان له باع طويل في مجال علمه فهي ((انوه مواضع التدريس بالحضرة)) كما يقول ابن الخطيب[1] فالسلطان شخصيا كان يتدخل في ذلك[2] وفيما يلي تراجم وافية لعلماء وشيوخ هذه المدرسة:

(1) محمد بن محمد بن محارب الصريحي (ت: 750هـ/ 1349م)

يكنى ابا عبدالله ويعرف بأبن أبي الجيش من أهل مالقة، كان ((اماماً في الفرائض والحساب، قائماً على العربية، مشاركاً في الفقه والأصول وكثير من العلوم العقلية))، جلس بمالقة للاقراء، ثم دخل غرناطة مرات متعلماً، ودعي للاقراء بمدرستها النصرية عام 749 هـ/ 1348 م. توفي في مالقة في ((ربيع الآخر من عام 750هـ/ 1349م، بعد أن تصدق بمال كثير، وأوقف عليها ريعاً خاصاً لطلبة العلم، وحبس عليهم كتبه))[3].

(2) يحيى بن أحمد بن هذيل التجيبي (ت: 753هـ/ 1352م)

يكنى أبو زكريا، كان آخر حملة الفنون العقلية بالأندلس، وخاتمة العلماء بها من طب وهندسة وهيئة حساب وأصول وأدب، جلس بالمدرسة اليوسفية بغرناطة يقرأ الاصول والفرائض والطب، وله ديوان بعنوان السليمانيات والعزفيات[4].

(1) **الإحاطة في أخبار غرناطة**، طبعة القاهرة، 1974 – 1977، 3/ 328.
(2)المصدر نفسه، 3/ 328؛ عيسى، **تأريخ التعليم في الأندلس**، ص 401.
(3) ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، طبعة القاهرة، 1974 – 1977، 4/ 390؛ عيسى، **تأريخ التعليم في الأندلس**، ص406.
(4) ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، طبعة القاهرة، 1974 – 1977، 4/ 390؛ عيسى، **تأريخ التعليم في الأندلس**، ص407؛ النقيب، شخصيات وأحداث، ص25.

(3) محمد بن إبراهيم بن محمد السياري المعروف بالبياني (ت: 753هـ/1352م)

يكنى أبو عبدالله، من أهل غرناطة إقرأ الفقه ودرس طيلة حياته وكان مرجعاً في المشكلات ومستشاراً في الأحكام، يقوم على الفقه أحسن قيام، حسن التعليم، سهل الالفاظ، يشارك في العربية والفرائض والأصول. توفي رحمه الله وهو مدرساً بالمدرسة اليوسفية وخطيباً بمسجد المنصورة[1].

(4) محمد بن علي بن احمد الخولاني (ت: 754هـ/ 1353م)

يكنى أبا عبدالله، ويعرف بابن الفخار، أصله من مجلة، كان أستاذ الجماعة، عاكفاً على العلم، ملازماً للتدريس، إمام الائمة، منتشر الذكر، بعيد الصيت، عظيم الشهرة، مستبحر اللفظ، يتفجر بالعربية تفجر البحر، جلس للتدريس في المدرسة النصرية، ((وتقدم خطيباً بالمسجد الأعظم))، ((وقل في الأندلس من لم يأخذ عنه من الطلبة))، ((وخرج ودرب وأجاز))، وكان لا يأخذ على ذلك اجراً إلا الجراية المعرفة[2].

(5) الفقيه أبو محمد بن عبدالله بن أبي القاسم بن جزّي الكلبي (ت: 757هـ/ 1356م)

(1) ابن فرحون، **الديباج المذهب في معرفة اعيان علماء المذهب**، تح: عباس عبد السلام، القاهرة، 1351هـ، 2/ 276 – 277؛ ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة**، تح: محمد سيد جاد الحق، القاهرة، 1966، 3/ 382؛ النقيب، **شخصيات واحداث**، ص25.

(2) ابن الخطيب، **الاحاطة في أخبار غرناطة**، طبعة القاهرة، 1974 – 1977، 3/ 35، 36؛ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاءه، 1/ 174؛ المقري، **نفح الطيب**، 383/5؛ عيد وفرحات، يوسف يوسف، **معجم الحضارة الاندلسية**، ط1، بيروت، دار الفكر العربي، 2000، ص401.

من أهل غرناطة، اديب وحافظ اشتغل بفن العربية، أخذ عن والده أبي القاسم وعن القاضي أبي البركات بن الحاج وسواهما، كان قاضياً وفقيهاً وشاعراً معروفاً، ترك مقطعات شعرية رصينة وكان يباهى به على المشرق والمغرب[1].

(6) منصور بن علي بن عبدالله الزواوي (كان حياً عام 765 هـ/ 1363م)

يكنى أبا علي، مقرئ، قدم الأندلس في عام 753هـ/ 1352م، وكان معجزة في العلم وله مشاركة حسنة في كثير من العلوم العقلية والنقلية، ونظرة في الأصول والمنطق والكلام، ودعوى في الحساب والهندسة والآلات. قام بتدريس المواد الرياضية في المدرسة الغرناطية، ثم غادر الأندلس في عام 765هـ/ 1363م[2].

(7) أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد خاتمة الانصاري (ت: 770 هـ/ 1368م)

يكنى أبا جعفر، ويعرف بابن خاتمة، ولد بالمرية سنة 724 هـ[3]، يقول عنه شبانة[4] أنه من أشهر أساتذة المدرسة اليوسفية، ثم يذكر في موضع اخر

(1) ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، طبعة القاهرة، 1974 – 1977، 3/ 392؛ البغدادي، إسماعيل، **هدية العارفين**، بيروت، د. مط، 1955، 160/2؛ عيد وفرحات، **معجم الحضارة الأندلسية**، ص190.

(2) ابن الخطيب، **الاحاطة في أخبار غرناطة**، طبعة القاهرة، 1974 – 1977، 3/ 325؛ عيسى، **تأريخ التعليم في الأندلس**، ص407؛ الطوخي، **مظاهر الحضارة**، ص317.

(3) عيد وفرحات، **معجم الحضارة الاندلسية**، ص191.

(4) **يوسف الأول بن الأحمر**، ص101.

أنه أوقف جزءاً من حياته على خدمة مدرسة غرناطة حيث درس لتلاميذها[1] وفي موضع ثالث يقول انه قضى شطراً هاما من حياته بمدرسة غرناطة[2] وقد أورد ابن الخطيب[3] ترجمة وافية، عن صديقه ابن خاتمة لم يشر فيها إلى انه عمل بالمدرسة اليوسفية، وإنما أشار إلى أن مجيئه إلى غرناطة كان لمجرد الزيارة في بعض الأحيان. كما ان ابن الأحمر[4] لم يشر إلى ذلك اطلاقا. أما سوليداد خيلبرت فلم تشر هي الأخرى في أي موضع من دراستها وتحقيقها لديوان ابن خاتمة، إلى أنه قد عمل مدرساً بالمدرسة الغرناطية، وأن أهم ما تقلده من مناصب هو الإقراء في جامع المرية، وربما قد شغل أيضاً منصب كاتب لفترة قصيرة جداً .

(8) محمد بن احمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق (ت: 771 هـ/ 1369م)

من أهل تلمسان، قدم الأندلس موفداً من أبي الحسن المريني[5] (697-752هـ/ 1297-1351م) في المغرب، واجتذبه سلطانها وبقى في غرناطة، قلده

(1) المرجع نفسه، ص160.

(2) ينظر تعليق المحقق على ترجمة المؤلف ضمن كتاب **أوصاف الناس** لابن الخطيب، ص69.

(3) **الإحاطة في أخبار غرناطة**، طبعة القاهرة، 1974 – 1977، 1/ 239 – 259.

(4) ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل، **نثير فرائد الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان**، تح: محمد رضوان الداية، ط1، بيروت، 1976، ص175.

(5) هو السلطان علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني، يكنى أبا الحسن ويلقب بالمنصور بالله، من افخم ملوك بني مرين دولة، وأضخمهم ملكاً، وأبعدهم صيتاً، وأعظمهم ابهة، وأكثرهم اثاراً بالمغربين الاقصى والاوسط والاندلس، بويع بفاس بعد وفاة أبيه السلطان أبو سعيد عثمان سنة 731 هـ بعهد منه. ينظر: ابن الخطيب، **اللمحة البدرية**، ص 92؛ الصاوي، الصاوي محمد، **الدولة المرينية**، ط1، الجيزة، الدار العالمية للكتب والنشر، 2011، ص178 .

السلطان الخطبة في مسجده عام 753هـ/ 1352م، واقعده للاقراء بالمدرسة في حضرته، ثم انصرف بعد ذلك من الأندلس في أواخر عام 754هـ – 1353م[1].

(9) فرج بن قاسم بن لب الثعلبي (ت: 780هـ/ 1378م)

من أهل غرناطة، يقول عنه شبانة[2] انه من أشهر أساتذة جامعة غرناطة (المدرسة اليوسفية) وتربطه بالوزير ابن الخطيب صلات أدبية وعلمية معروفة. عليه مدار الشورى واليه مرجع الفتوى، اشتهر بغزارة حفظه واضطلاعه بالمسائل والقيام على القراءات والتبريز في التفسير والمشاركة في الأصول والفرائض والأدب. اقرأ بالمدرسة النصرية في عام 754هـ، معظما عند الخاصة والعامة وله قصائد في مدح الرسول (ﷺ)[3].

(10) إبراهيم بن محمد بن فتوح العقيلي الاندلسي (ت: 867 هـ/ 1462م)

يكنى أبا اسحاق، ويعرف بابن فتوح، فقيهاً وعالماً، كان مفتي غرناطة على المذهب المالكي ومن ابرع أساتذة مذهب الامام مالك في المدرسة اليوسفية، متفنناً في العلم، محققاً ونَظَّاراً واستاذاً، حافظاً للغة والأدب والشعر، خصه الله بفكر نقاد وذهن منقاد، فانتفع به الجهاذبة والنقاد، وتخرج على يديه أكثر طلبة

(1) ابن الخطيب، **الاحاطة في أخبار غرناطة**، طبعة القاهرة، 1974 – 1977، 3/ 104، 105؛ السيوطي، **بغية الوعاة**، 1/ 46؛ عيسى، **تأريخ التعليم في الأندلس**، 405.

(2) **يوسف الأول بن الأحمر**، ص101.

(3) ابن فرحون، **الديباج المذهب**، 139/2؛ السيوطي، **بغية الوعاة**، 2/ 243–244؛ عيسى، **تأريخ التعليم في الأندلس**، 403، 404؛ النقيب، **دور الوزير أبو النعيم رضوان**، ص25؛ عيد وفرحات، **معجم الحضارة الأندلسية**، ص198.

الأندلس الاعيان ولاسيما طلبة المدرسة اليوسفية، توفي بغرناطة ليلة الثلاثاء السادس من ذي الحجة عام 867 هـ/1462م، وقد نيف على الثمانين سنة[1].

(11) إبراهيم بن علي بن محمد الربيعي التوني (ت: 874هـ/ 1469م)

من أساتذة المدرسة اليوسفية بغرناطة، درس الفقه وأصوله وأذن له في تدريسهما في المدرسة النصرية[2].

(12) محمد بن أبي الفضل البسطي

يكنى أبا عبدالله، ولم تذكر المصادر تأريخ وفاته، كان فقيها مشهوراً وآخر من درَّس بالمدرسة اليوسفية في غرناطة قبل وقوعها في أيدي الملكين الكاثوليكيين، فضلا عن كونه شاعر البلاط المفضل لدى أبي عبدالله الصغير (892-897هـ/ 1487-1492م) اخر ملوك غرناطة[3].

وإلى جانب ذلك كان بعض الطلبة يتلقون العلم في بيوت الأساتذة (الشيوخ) نظير دفع أجر مقابل ذلك[4]، يشبه ما يسمى اليوم بالدروس الخاصة، وهي التي كانت تستخدم في تعليم أولاد الملوك والوزراء وعلية القوم[1].

---

(1) ابن القاضي، أبو العباس احمد بن محمد المكناسي، **درة الحجال في اسماء الرجال الشهير بـ ذيل وفيات الاعيان**، تحقيق: محمد الاحمدي أبو النور، ط1، القاهرة، دار التراث، تونس، المكتبة العتيقة، 1970، ص196؛ عيسى، **تأريخ التعليم في الأندلس**، ص401، 402.

(2) عيسى، **تأريخ التعليم في الأندلس**، ص401.

(3) المقري، **أزهار الرياض**، 1/ 103؛ عيسى، **تأريخ التعليم في الأندلس**، ص405.

(4) الغبريني، أبو العباس احمد بن احمد بن عبدالله، **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق: محمد بن أبي شنب، ط1، الجزائر، د. مط، 1910، ص43 – 44؛ الطوخي، **مظاهر الحضارة**، ص317.

وكان للأستاذ (الشيخ) ان يوقع على تلاميذه عقوبة الضرب إذا حدث ما يستوجب منهم ذلك، بالدرة أو الشوكة أو العود[2]، ويفضل أن يكون شيخاً خيراً، دّيناً، عفيفاً، ورعاً، قليل الكلام والشهوة إلى استماع مالا يعنيه، وان لا يحضر الجنائز البعيدة، ولا يكثر من البطالة، ولا يهمل الصبيان، ولا يزول عنهم إلا لاخذ الغذاء أو الوضوء[3].

وقام بعض الأساتذة بحبس مؤلفاتهم على طلبتهم للانتفاع بها[4] وجعل أهل الأندلس ومنهم أهل غرناطة القرآن الكريم وقرآءته اساساً في التعليم، والى جانبه يدرسون الشعر والموشحات والترسل وقوانين اللغة العربية وتجويد الخط[5] حتى أنه صار حسن الخط من المميزات التي يجب ان تتوافر في طلاب العلم والعلماء[6].

كما انتشرت عادة اختصار امهات الكتب خلال عصر مملكة غرناطة، وذلك حتى يتمكن الناس من قراءتها نظراً لانشغالهم بحياة الجهاد ضد الإسبان، وامور المعيشة الصعبة، مما لم يكن يسمح بقراءة تلك الموسوعات[7] ومن العادات الأخرى التي كانت شائعة بين العلماء آنذاك، عادة كتابة فهارس باسماء شيوخهم

---

(1) ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، طبعة دار المعارف بمصر، 1955، 1/ 164؛ الطوخي، **مظاهر الحضارة**، ص317، 318.

(2) الازدي، احمد بن إبراهيم بن يحيى، **تحفة المغترب ببلاد المغرب، لمن له من الاخوان، في كرامات الشيخ أبي مروان**، تحقيق ونشر: فرنادو دي لاجرانخا، مدريد، 1974، ص152.

(3) الطوخي، **مظاهر الحضارة**، ص318.

(4) المقري، **أزهار الرياض**، 1/ 58؛ الطوخي، **مظاهر الحضارة**، ص318.

(5) ابن خلدون، **المقدمة**، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د. ت، ص 341-342، 374، 491-492؛ الطوخي، **مظاهر الحضارة**، ص319.

(6) الطوخي، المرجع نفسه، ص319.

(7) ابن القاضي، **جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام في مدينة فاس**، د. ط، المغرب، فاس، د. مط، 1305هـ، 1/ 144، 252 – 253؛ الطوخي، **مظاهر الحضارة**، ص319 – 320.

حيث ظهرت المعاجم بأسماء الكتب والتعريف بمؤلفيها مرتبة على حروف المعجم[1] وهذا لم يكن من الامر اليسير.

ان ما ذكرناه من علماء وشيوخ, ممن قاموا بالتدريس في المدرسة اليوسفية، أدوا ادواراً علمية وثقافية متميزة في تربية وتثقيف أجيال كثيرة سواء من داخل مملكة غرناطة الإسلامية أو من خارجها و إنهم قلة من كثرة كثيرة أغفلتها مصادرنا العربية وبعضها الاخر لم نعثر عليه بسبب فقدان المصنفات التأريخ ية الاصيلة.

ويكفى للدلالة على ذلك ما قام به الملكان الكاثوليكيان فرديناند وايزابيلا من إحراق ألاف المجلدات في اكداس مكدسة في مختلف مجالات العلوم والأداب والفنون والمعارف في ميدان الرملة وسط غرناطة أمام مسمع ومرآى من العالم فهو إحراق جزء من تراثنا العربي المجيد الذي يعجز أعداء الإسلام من اقتلاع جذوره العريقة من أرضنا الطيبة.

وربما مستقبلا تظهر مصنفات ودراسات تأريخ ية جديدة يقدم على تحقيقها من يرتاد الدراسة في المجال الأندلسي الرائع، وستظهر آنذاك شخصيات علمية من أساتذة ومشايخ ادوا رسالاتهم العلمية بكل فخر وتواضع تعتريهم فكرة نشر العلوم والمعارف العربية في مختلف مجالاتها والتي تركت أثارها في مشرق العالم وغربه.

هؤلاء العلماء والفقهاء والمشايخ الكبار يستحقون عن جداره أن يقف لهم التأريخ اجلالاً ليُكبرِ فيهم تلك الروح العلمية التي لعبت دوراً بارزاً في نشر العلوم والمعارف في كل من الأندلس والمغرب الأقصى وشمال أفريقية وحتى بلدان المشرق العربي الإسلامي، وتحديداً علماء ومشايخ المدرسة اليوسفية، ذلك الصرح العلمي الحضاري العريق الذي تلقى فيه العديد علومهم ومعارفهم وأصبحوا يشار لهم بالبنان ومنهم الوزير الغرناطي الشهير (ابن زمرك[2]) تلميذ ابن الخطيب هذا

(1) ابن فرحون، **الديباج المذهب**، 2/ 291 – 295؛ الطوخي، **مظاهر الحضارة**، ص320.

(2) ابن زَمْرَك: تلميذ ابن الخطيب وصدر من صدور طلبة الأندلس وأفراد نجبائها، دخل المدرسة اليوسفية، وتتلمذ على أيدي كبار اساتذتها فاحسن الاصغاء وأحسن الدراسة في

الوزير الذي ترك اثراً كبيراً في السياسة الغرناطية الداخلية والخارجية، والذي تقلد منصب الوزارة بعد أستاذه ابن الخطيب الشخصية المعروفة المتعددة الجوانب السياسية والإدارية والأدبية والدبلوماسية وغيرها.

الخاتمــة

بعد الانتهاء من هذا الجهد العلمي المتواضع، توصلنا إلى النتائج التالية:

1. إن النظام التعليمي من أهم المعالم التي تميز حركة الشعوب على طريق تطورها وارتقائها، كما انه الاساس الذي تبنى عليه حضارات الامم، ومن هنا كانت أهمية دراسة هذا الموضوع، للتعرف على الارضية العلمية والثقافية لهذه الحقبة التأريخ ية الزاهرة من تأريخ مملكة غرناطة العربية الإسلامية العريقة.

2. تبين لنا من خلال هذه الدراسة، أن سلاطين مملكة بني الأحمر في الاندلس قد وجهوا اهتماماً خاصاً بالتعليم ابتداءاً من سن الطفولة المبكر وحتى سني الكهولة واحيانا حتى وفاة الشيخ نفسه، ولا سيما السلطان أبو

غرناطة وفاس. قام برحلة في طلب العلم والاستزادة ثم ترقى في درج المعرفة فاصبح استاذاً يتولى التدريس الحقه ابن الخطيب بادارة الدولة لما رأى فيه من نجابة وفطنة، ولكن تغيرت اطباعه في عهد السلطان ابو الحجاج يوسف الأول، وبسبب طغيانه وغطرسته وحدة لسانه نفاه سلطانه إلى المرية ثم اعاده إلى الوزارة ولكنه اساء السيرة ثانية على عهد السلطان محمد السابع، فكثر خصومه وازداد استبداده، وفي أواخر سنة 797 هـ داهمته في منزله مجموعة من المغامرين فقتلوه وولديه وخدمه. ينظر: المقري، نفح الطيب، تحقيق: يوسف الشيخ، محمد البقاعي، ط1، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1986، 51/7؛ النقيب، أحلام حسن مصطفى، **أبن زمرك من مشاهير السياسة الغرناطية**، بحث منشور في مجلة سُرَّ من رأى، تصدرها كلية التربية، سامراء، جامعة تكريت، العدد 26، المجلد 7، السنة السابعة، تموز، 2011، ص1-2.

الحجاج يوسف الأول الذي كان عالما أديباً شغوفا بالعلوم والفنون وتشييده العديد من المدارس التعليمية ومنها المدرسة اليوسفية بغرناطة موضوع بحثنا.

3. كان لشيوخ وأعلام المدرسة اليوسيفية أثر كبير في نشر الثقافة لاسيما إن ثقافتهم كانت أوسع من ثقافة غيرهم وكانت معارفهم ودائرة اطلاعهم واسعة وشاملة بحكم موقعهم في التدريس، هذا الأمر انعكس ايجابا مما كان له أطيب الأثر على سكان غرناطة ومستواهم العلمي والثقافي.

4. تنوع البرنامج التعليمي في المدرسة اليوسفية، حيث دُرّست مختلف العلوم الدينية واللسانية، وكان القرآن الكريم وعلومه في مقدمة العلوم التي تناولها شيوخ هذه المدرسة فضلا عن دراسة اللغة والأدب والأشعار وعلوم الهندسة والحساب.

5. سادت العلاقات الطيبة بين الأستاذ (الشيخ) وطلبته، فالأول مسؤول عن تعليمهم وبذل كل الجهد في صالحهم، أما الثاني فمطالب بأن يعكف على الدراسة، وان يحترم أستاذه، وان يمضي على قواعد وعادات المجالس العلمية.

6. كان للمدرسة اليوسفية دور كبير في نشر العلوم والمعارف في داخل غرناطة وخارجها حيث اعتمدت على كبار الشيوخ والعلماء والاعلام ممن قاموا بالتدريس في هذا الصرح الحضاري العلمي العريق.

The Role The Yousifi School in Spreading Science and Knowledge in Granada Kingdow

Prof.Dr.Ahlam Hasan Mustafa AL-Naqeeb & Dr.Barzan Mauyassar Hamid Al-Ahmed

Abstract

The Intellectual Movement witnessed a marked progress during the Ghurnada Kingdom period . The Kings (Sultanates) themselves were scholars and researchers. They enhanced the scholars for they were also sciencests , among them was the founder of the Kingdom the Sultan Mohammad Ibn Al- Ahmar . As a result the intellectual life reached its high progress in the rule of the Sultanate Abi Al-Haggag Yousif Bin Ismaeel Al-Nasry (733 - 755 A.H) and during the role of his son the Sultan Mohammad Al Ghny bi - Allah (755 - 793 A.H),the Sultan Abu Al-Haggag himself was Scholar and poet and he loved these fields of science.

As a result many schools and scientific instituation appeared during this period in Ghunada Kingdom ,and the kings asked the scohlars to visite Ghunada and then gave them a high position , and asked them to teach in the schools of the Kingdom different science.